المدرسة العراقية

وخصائصها المنهجية والعلمية في التعليم

الاستاذ الدكتور

أيهم عباس القيسي

كلية الفنون الجميلة/ جامعة بغداد

المقدمة

يُعَدُّ التعليم ركناً أساسياً من أركان بناء الدول والمجتمعات، لما يتركه في نفوس الأجيال من رغبة في البحث والتقصي في مجالات الحياة العلمية والأدبية. وفي تاريخ أُمتنا للتعليم مكانة متميزة في تراثها الخالد، وفي سفر أبنائها المجيد. إذ تختزن كتبنا ومؤلفاتنا العديد من صور الابداع والتميز التي صاغها أبناؤها من الأُدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين والقراء من خلال ما قدموه من اسهامات اغنت المكتبة العربية، وما رفدوا به الإنسانية من جهود محمودة .

وفي خضم هذا الامتداد العميق لجهود علمائنا وأدبائنا ومبدعينا ينهض أبناء العراق بنصيب وافر من هذه الجهود الطيبة فسجلت كتب التراث طائفة من هذه المآثر التي يعتز بها العرب عامة والعراقيون خاصَّة

فقد شهد العراق ظهور أبرز مدارس النحو، وفي مقدمتها مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة، وحظيت البصرة بظهور أشهر مدارس الفلسفة الإسلامية، لاسيَّما مدرسة المتكلمين وكذلك اشتهرت بظهور فن النقائض الشعري الذي يمثل ثمرة من ثمرات الجدل والحوار والنشاط الفكري الذي ساد الحياة الأدبية

وشهدت سوق المربد في البصرة نشاطاً نقدياً وادبيا رائعاً و انطلاقا من هذا الامتداد التراثي لمساهمات أبناء العراق في رفد تراث الأمة وإنجازات أبنائها وجدت من المناسب ان اقف بإيجاز عند مساهمات المبدعين العراقيين ورصد ما قدموه للمكتبة العربية لإغناء هذا التراث في مجالات النحو واللغة والتفسير وعلوم القران والادب والترجمة وسائر العلوم الأخرى

وشهدت بغداد في عصر العباسيين ظهور مراكز الترجمة وتُرْجمتْ إلى اللغة العربية

كتب مهمة كان يعطى مترجموها مقدار وزنها ذهباً. انَّ هذه الجهود السخية لأبناء العراق تمثل علامة مضيئة في إغناء هذا التراث ووفاء لهذه الجهود الطيبة التي قدمها سلفنا الصالح وجدت من المناسب أن أُقدم هذه اللمحة الموجزة عن جهود المدرسة العراقية وخصائصها العلمية في البحث والتأليف.

المدرسة العراقية وخصائصها المنهجية والعلمية في التعليم

يمثل العلم مرتكزاً أساسياً من المدرسة العراقية وخصائصها المنهجية والعلمية في التعليم:مرتكزات البناء الحضاري لأمة العرب، وبداية موفقة في وضع القواعد الثابتة للتطور الذي شهده التاريخ وعرفته العلوم. ولعل سعة المكتبات العالمية وامتدادها، وهي تتوزع بين أكثر من خمس وأربعين دولة، وتختزن مكتباتها التي تتجاوز ستَ مئة مكتبة تراث أمتنا وخزين أفكار علمائنا ،وماخفي من المكتبات اولم يفهرس منها يزيد على هذا العدد

ولعل هذه الأعداد الهائلة من المخطوط والمطبوع تؤكد الحقيقة التي تقول إنَّ أكثر من مليوني مخطوط تتوزعها تلك المكتبات وتتجمع في اروقتها ثمار عقولنا وتجربة أسلافنا ومجهود رجالنا الذين عدوا العلم عبادة وطلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة، فامتلكوا إرادة الحياة وصار تعليمه ثواباً، فنالوا سعادة الدنيا والآخرة. فأحسنوا إلى ابنائهم بنعمة العلم، وبذلوا من الجهد والمثابرة مارفعهم الى المنزلة العليا، فكانت علومهم ومعارفهم، وكانت مؤلفاتهم وأسفارهم، وكانت مناهجهم وأساليبهم ..

وشهد القرن الأول الهجري حركة علمية واسعة تناولت علوم القرآن (القراءات والتفاسير) التي أسهمت في نشأة الدراسات اللغوية الأولية لارتباطها بعلوم القرآن.

وإن هذا الاعتقاد لاينفي المراحل الأولى التي دون فيها الفقه والأمثال والتاريخ وفروع العلم الكثيرة، وإن قسماً من هذه العلوم يمكن أن يعود الى العصر الجاهلي. ومثل ماشهد هذا القرن بدايات الدراسات القرآنية، فقد عرف الاهتمام بالحديث وكتابته وتدوينه وتصنيفه. وتدل هذه البدايات على المنهجية العلمية التي سلكتها علوم العربية والتزم بها الرواة الأوائل، فكانوا طبقات في كل علم، وأعلام هداية في كل صنف من صنوف المعرفة، وبقيت موضع اعتزاز ومناهجهم طرائق بحث، وتجاربهم العلمية والمختبرية موئل اعتماد العلماء. وقد تركت هذه القدرات العلمية آثارها في النظم التعليمية.فكان المسجد أول مدرسة يتوافد إليه طلبة العلم، وتلقى فيه الدروس، وهو المركزالحقيقي للمدينة، بعد أن أصبح المسجد الذي أنشأه رسول الله ﷺ مركز الدولة التي انشأها، ثم اصبح المسجد يأخذ مكانه قرب قصر الخلافة أو دار الإمارة، كما هو الحال في البصرة والكوفة وبغداد.

وكان للمسجد في المدينة العربية الإسلامية ارتباط بالسوق، وكثيراً مانجد أحدهما مجاوراً للآخر؛ للصلة الروحية بينهما، والهدف المشترك الذي يحقق الوحدة التكاملية في التثقيف الديني والتشريعي والفقهي والعلمي. ولاأريد أن اقف عند الدور التعليمي الذي اداه المسجد عبر المسيرة العلمية التي ترسخت فيها تقاليد الدرس، وتحققت أصول التعليم، وتكاملت عناصر الأداء العلمي تمهيداً لظهور المدارس التي اصبحت مراكز إشعاع حضاري ومناطق تجمع. فهي يلتقي فيها المدرس بالطالب، ويتعهد للتعليم فيها المدرسون والمعيدون، ويؤدون واجباتهم على وفق الرتب العلمية، فالمدرس يلقي درسه ،ويقف عند الموضوعات الرئيسة ويذكر المصادر التي يمكن الانتفاع منها، ويملي على طلبته مايحفظ من أصول، ويعتمد من روايات، وبعده يأتي المعيد فيأخذ على عاتقه إعادة الدرس شارحاً مااستغلق على الطلاب فهمه، موضحاً مافيه من مسائل هي بها حاجة الى

التفسير والايضاح ليستوعبوا مضامين الدرس، ويحسنوا فهم عناصره، وماأثاره المدرس من قضايا.

وكان للتعليم نظام متكامل وشروط محكمة تقيد أصوله وتضبط قواعده وتضع لكل مرحلة من مراحله مايحقق لها التكامل، ويمنحها المواصفات المناسبة. وقد أفاض الباحثون في هذا الباب وكتبوا في نشأة التعليم مايؤكد استقامة هذا النظام وعراقة أصُوله.

وشهد التعليم في مراحل الكتاتيب ظاهرة التعليم المجاني حين كان بعض المعلمين يعلمون حسبةً، ولايأخذون على تعليمهم أجراً. فقد روى ابن قتيبة، ((أن الضحّاك بن مزاحم وعبد الله بن الحارث كانا يعلّمان ولايأخذان أجراً))[1]

ولم تقتصر مهمة التعليم الأوُلى على تعليم القرآن والحديث وعلوم اللغة والادب، وانما امتدت لتشمل القصاص والوعّاظ، ولكل حلقة من حلقات الدرس موضوع تتناوله، وعلم تختص به حتى أصبح لعلم الكلام والشعر والأدب وأيام العرب مجالس تعقد وحلقات تقام ومناظرات تشاهد. فازدهرت الحياة العلمية لشغف الناس بالعلم ورغبة في الوصول إلى الحق، وتوثيقاً لما يتوصلون إليه من نتائج، واعتزازاً بما يتحققون من صحته، حتى أصبحت مجالاً فسيحاً من مجالات التحكيم العقلي والمناقشة المفيدة، والمشاركة في الرأي والتشاور في الأحكام.

وقد قدمت هذه المناظرات نتائج إيجابية محمودة حكتها كتب الفقه وروت بعضها كتب النحو واستأثرت بها مجالس العلماء حتى خصصت الفصول الطويلة التي تمثل أصول الدرس حين يقعد العالِم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس، فيتكلم العالِم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه، ويكتبه التلاميذ فيصير كتاباً، وهي عادة اعتادها السلف

(١) المعارف / (١٨٥).

من الفقهاء والمحدَّثين وأهل العربية[1] .

وأملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير، فأملى ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخم، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة، وأملى أبو محمد القاسم بن محمد الأنباري وولدُه أبو بكر مالايحُصى وأملى القالي خمسة مجلدات [2]. وطريقتهم في الاملاء كطريقة المحدثين سواء يكتب المستملي أول القائمة : مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا ويذكر التاريخ ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغوية باسناد وغير اسناد مايختاره[3] .

وهي طريقة تقرب من اساليب المحاضرات في وقتنا الحاضر، لأنها تقترن باشارة من فنون النقد والموازنة، واطراف من غريب اللغة ونادرها، وطوائف من قصص العرب وكلام الأعراب في باديتهم إلى بعض مسائل العربية والتاريخ.فهي تجمع أسباب الرضا لكل قارئ، ولاتثقل عليه مهما تكن ميوله العلمية والادبية، وكأنما وهب الله هؤلاء القدماء هذه القدرة النفسية الموهوبة التي يجعلون بها العلم خفيفاً محمله، لايعيا به مُعانيه ومُزاوله، بل يتنقل بين فنونه في شوق ولهفة. ولم تكن المكتبات بعيدة عن وسائل التعليم، فقد عرف العراق المكتبات منذ أقدم العصور، وتبقى مكتبة(أشور بانيبال) من المكتبات العظيمة التي حفظت لنا الواحاً ورقماً طينية تحدثت عن العصور القديمة وارّخت لمراحل تاريخية، وكشفت عن ثقافات عريقة. ومن المناسب الاشارة الى المكتبة التي عُثر عليها في (سبار) قبل مدة ليست طويلة، وهي تضم مجموعة نادرة من الرقم الطينية النافعة.

وتبقى أخبار أبي عمرو بن العلاء التي تُروى وهي تتحدث عن كتبه التي كتبها

(١) ينظر المزهر في علوم اللغة ٢/ ٣١٣ .
(٢) ينظر مقدمة امالي الزجاجي/ ١٤
(٣) ينظر مقدمة امالي الزجاجي/ ١٥

عن العرب الفصحاء وقد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف من الأخبار التي تؤكد اهتمام العلماء بالمكتبات ومنذ الأيام الأوُلى، حتى إذا انتصف القرن الثاني للهجرة نشطت حركة التأليف والترجمة واتسعت صناعة الورق، وازدهرت حرفة الوراقة، وأخذت مجالس العلماء والأدباء في الأنتشار، يقصدها الرواد، ويتزود بها الفقهاء ويرتفع ذكر(خزانة الحكمة) او(بيت الحكمة) وهي تأخذ مكانها في عصر الرشيد، وأنها كانت مرجعاً للعلماء، ينهلون من ثقافتها وينسخون من كتبها، تحيط بهم فرق العمل ويواكبهم الباحثون والأعوان وهم يتوجهون في كل طريق، ويكتب للترجمة أن تزدهر في هذا العصر وتتسع أبوابها، وهي تقف أمام تراث عربي وإسلامي راسخ، وعقائد ثابتة، وشخصية متميزة تجلت في روحها رحابة الاتساع، وتجسدت في نقاشها قدرة الحجة وبراعة المنطق وسلامة الدليل حتى استقامت مدرستها أصيلة ومنهجها قوياً وشموليتها محكمة الأداء

ويكتب للعلوم الأخرى أن تجد طريقها في رحاب هذه الحركة لتزدهر الفلسفة والعلوم العقلية، ويصبح الاهتمام بالعلوم التجريبية موضع رعاية العلماء، وهم

يباشرون دورهم في تقديم النتائج التي يترتب عليها الحكم من خلال تجربة، وتحدد معالم الأشياء في ضوء المتابعة. وفتحت المكتبة العربية أمام الكتب اليونانية وغيرها لتصب في القناة العلمية التي ازدهرت فكراً واتسعت ابواباً واستقرت منهجاً واتجاهاً، واصبح الاشراف عليها والاعتناء بتنظيمها والاتصال بالمكتبات المعروفة بالعالم آنذاك للانتفاع منها، نظاماً من انظمتها واهتماماً من اهتماماتها في دائرة التخصص والتخطيط والمتابعة بعد أن تهيأت لكل علم خزانة، ولكل خليفة على وفق ماحققه فيها ركن يعتمد حتى وجدنا ابن النديم يشير الى هذا التقسيم، وهو يستعين في (الفهرست). بخزانة الرشيد تارة وخزانة المأمون تارة أخرى

وتتجلى صورة الاهتمام بهذه الكنوز في صيغة الاستعمال التي اطلقت على الاماكن التي

تحفظ فيها الكتب. فكانت دار الحكمة كما سماها بعض المؤرخين واقترنت بكل مكتبة تحفظ فيها الكتب النادرة والفريدة والجليلة. وقد توفرت في هذه المكتبات مستلزمات البحث من إفراد غرف المطالعة وتهيئة الوراقين والأمناء والمنفقين والمترجمين والمجلدين. وقد أوردت بعض المصادر أسماء مَنْ كان يقوم بهذه المهام.

ولانغالي اذا قلنا إنَّ العراق في هذه المرحلة كان أهم مركز من مراكز الحياة العقلية في فروع العلم والفن من تفسيروحديث وفقه ولغة ونحو وصرف، وترجمة كتب فلسفية ومذاهب كلامية وعلوم طبية ورياضية وغناء وموسيقى وتأليف في كل هذه العلوم والفنون. فقد وضعت في اللغة العربية أسس كل العلوم وتفسير القرآن وجمع الحديث ووضعت علومه، والنحو وكان (الكتاب) ووضعت كتب اللغة وكان الخليل بن أحمد، وجمعت أشعار العرب وكان المفضل الضبي والأصمعي، وكانت كتب الأدب وكان الجاحظ وابن قتيبة والمبرد، ودون الفقه على يد الأئمة، ودوّن التاريخ وكان الواقدي، وابن اسحاق..

إن رؤوس مدرسة العراق وأعلام الفكر ورواد النهضة التي توسعت في كل باب وازدهرت في كل دوحة وأشرقت في كل حلقة دراسية وباحة مسجدٍ عامرٍ، وندوة نقاش فكري رصين اصبحت حقيقة ماثلة في جبين التاريخ وصفحاته المشرقة.

هنا لابد أن يصبح السؤال كبيراً والحديث واجباً ومتابعة الأسباب مدعاة للبحث عن أوليات هذه الحركة ودواعي هذا إلاشراق الفكري الذي ازدانت فروعه بالعراق.

وتتسع دائرة السؤال حيث تجد المناطق الأخُرى في العالم تتجه الى هذا المركز، وهي تمس بحاجتها الملحة اليه. وبأن اسباب الحضارة مُرتهنة في العمران وأن مراكز إلاشعأع أصبحت تمد قنواتها في كل زاوية لتزهر عطاء وفكراً، وقد تألقت عبقرية الابناء بعد أن استوعبت المبادئ الإسلامية، فكان التنظيم حلقة جديدة، والتخطيط عنصراً رئيساً،

والتدوين والتبويب بداية جادة لوضع العلوم على طريق التكامل، وهي تستمد من الشريعة عوامل الاندفاع، ومن الإيمان بالعلم أسباباً للإحاطة بعد أن اصبحت الرواية وصحة السند منهجاً للبحث والتأليف في علوم النقل ومعقولية الحقائق وامتحانها وإخضاعها إلى التجربة طريقاً للعلوم العقلية التي استجابوا لها، وتعاملوا معها على وفق المنطق العقلي وقوانين التجربة المختبرية أو الميدانية.

إن تحديد المنهج والالتزام بالخطوات التي اوجبتها الحالة العلمية مسألة طبيعية وحالة مألوفة لامجال للابتعاد عنها أو الخروج عليها بعد أن اصبحت حالة التشريع المنصوص عليها والثابتة حقائق لامجال للعقل فيها وأصبحت العلوم العقلية ميداناً واسعاً لأجتهاد العقل ودائرة كبيرة للفروض المعقولة التي لانقف إلا في حدود الدليل ولاتنتهي إلا في إطار التجربة.

فأخذت مدرسة القياس والرأي دورها في العراق لأسباب أوجبتها ظروفه وحالات دعت اليها اوضاعه، فشغل حيزاً واسعاً من العلوم بعد أن دخل في أصول اللغة والفقه والنحو والمنطق. وإن الأخذ بهذا المبدأ كان ميداناً فسيحاً من ميادين الاجتهاد وبعد أن بدأت الحالات الجديدة تفرض على المجتمع نفسها، وتضع مشكلاتها، وتحمل الناس على معالجتها بما يرونه مناسباً وحلّها بما يتفق والحياة وتطورها يُلزُم هذا الواقع، ويخلق هذه الحالات على الرغم من التفاوت في مقدار الأخذ به والاعتماد عليه.

وبمقدار ماكانت المسألة مدعاةً للنقاش فإن الابواب التي فتحتها والمسائل التي عرضت لها، والآراء التي قيلت بشأنها قد أوجدت حياة فكرية غنية، اجتهدت فيها عقول، ولمعت أفكار، واستُنبطت أحكام، واعتمدت أدلة. فكان ميدان العلم مفتوحاً لكل راغب ومجال البحث مبسوطاً لكل مقتدر، وواقع الأحداث التي يعاني منها المجتمع موضع اهتمام الجميع، وكان نهج الجميع هو التحري عن الحقيقة وتوخي الدقة،

وإعمال العقل وهي خصائص تعطي المنهج العلمي أصالته وتوثق قواعدَه، وتُحكمُ أصوله وضوابطه.

فالحقائق الثابتة التي احتفظت بها الأسفار تؤكد الحقيقة الأساسية في أزدهار المدرسة العراقية، وتعطي هذه المدرسة ثقلاً علمياً متميزاً، وهي تحفل بأسماء العلماء الأعلام، وتقرن بنشاط المدارس والمعاهد. فالمقدسي صاحب (أحسن التقاسيم) يقف عند هذه الحقيقة ليشير الى أن العراق ((كان منبع العلماء .. أخرج ابا حنيفة فقيه الفقهاء وسفيان سيد القراء، ومنه كان ابو عبيدة والفّراء وابو عمرو صاحب المقراء وحمزة والكسائي وكل فقيه ومقريء وأديب وسريّ وحكيم وداه وزاهد ونجيب، وظريف ولبيب. به مولد ابراهيم الخليل واليه رحل كل صحابي جليل. أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا، وبغداد الممدوحة في الورى والكوفة الجليلة وسامرا))[1].

ومن الطبيعي أن يشتد التنافس بين هذه الامصار إحياءً لاسباب النهوض العلمي وتكريما لروح البحث واستيعاباً لمنطلقات الافكار التي كانت تتوحد في إطار الأهداف والمبادئ، ولكنها تظل قابلة للعطاء في النتائج المتوقعة إكراماً للفكرة المبدعة واعترافاً بالعمل الخلاّق وإفساحاً لمن يحاول أن يقدم الجديد المبتكر.

ولم يكن العطاء العلمي أو التنافس فيه بعيداً عن العطاء القتالي الذي اصبح مجالاً للمفاخرة حين يصبح الاعتزاز بالقادة الاوائل والمحررين من الرجال موضع اهتمام. فالجنود الذين قاتلوا الغرباء في الحروب الاولى من العراق كانوا موضع فخر لابنائهم وأحفادهم.

كما كانت اسواق الشعر من المآثر التي ظلت تمد الثقافة بمعين ثروتهم في اغناء اللغة

(١) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم/ ٥١-٥٢

والنحو والأدب. وبقي كل مصر من أمصار العراق موضع إشادة أصحاب التأليف. فبغداد وسط الدنيا وسُرّة الأرض والمدينة العظمُى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها، سعة وكبراً وعمارة، سكنها اصناف الناس وانتقلوا اليها من جميع البلدان. وبغداد ليس هناك عالم أعلم من عالِمهم ولاأدرى من رواتهم، ولاأجدل من متكلمهم، ولااعرب من نحويهم، ولاأصح من قارئهم، ولاأمهر من متطببهم، ولاأحذق من مغنيهم ولاألطف من صانعهم[1].

ويبقى دور العراق في تحقيق الشعر من العلامات البارزة في تاريخ الثقافة العربية لما حفل به تاريخه الادبي من مساهمات متميزة اغنت المسيرة الأدبية منذ ان واكب العراقيون الأوائل مواكب البشرية التي اهتدت الى الكتابة فدوّن الشرائع ووثق معاملاته بالعقود وصنع الاختام الاسطوانية.

وظلت الإنسانية مدينة لهذا الانسان الذي مهد للبشرية وسائل الاستخدام المناسبة لتدوين مفردات الحياة وليس غريباً ان نرى العراق يستعيد مكانته الأولى التي احتلها في تاريخ الإنسانية في ظل الدعوة الكريمة وآفاق الرسالة الرحبة التي حملها رسول الأمة ﷺ بعد أن أتجهت اليه الأنظار ليكون علامة من علامات الهداية وان يكون أبناؤه حملة الرسالة يبشرون بها رسالة محبة وخير، فكان العراق مركز اشعاع وهنا كان التدوين حلقة جديدة من حلقات المعرفة ووجهاّ من وجوه تسجيل الإنتاج الفكري وتيسير نقله.

وقد حرص العرب على الكتابة، واستخدمت من أجل ذلك أساليب شتى، فكانوا يجعلون الكتاب كما يقول الجاحظ: ((حفراّ في الصخور ونقشاّ في الحجارة، وخِلْفةّ مركبة في البنيان فربما كان الكتاب هو الناتئ، وربما كان الكتاب هو الحفر واذا كان تاريخاّ لأمر

(١) ينظر الأعلاق النفيسة / ٣٢

جسيم او عهداً لأمر عظيم أو موعظة يُرتجى نفعها، أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبةِ غُمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقّر، وعلى الابلق الفرد، وعلى باب الرُّها، يعمدون الأماكن المشهورة والمواضع المذكورة فيضعون الخطّ في أبعد المواضع من الدُّثور، وأمنعها من الدروس وأجدر بأن يراها مَنْ مَرّ بها، ولأتنسى على وجه الدهر))[1]

وتجمع المصادر على أن أول من صنّف وبّوب هو أبو بكر بن أبي شيبة بالكوفة، فكان من أوائل من عرفوا بتكثير الأبوب وجودة التأليف وحسن التصنيف.

اما في تدوين اخبار السيرة النبوية فقد كان اول كتاب شامل وصل الينا هو سيرة الرسول ﷺ لمحمد بن إسحاق برواية ابن هشام التي اختصر روايتها وأضاف اليها. ومن الطبيعي ان التدوين والتأليف لا يمكن ان يقوم لهما وجود، ولايتحقق لهما ذكر او بداية إلا إذا كانت المواد التي تستخدم للكتابة متوفرة تسهل لمن أراد استعمالها وتيسر لمن رغب في التأليف ليتمكن من تحقيق رغبته وتجميع ما يروم جمعهُ كتاباً او سيرة او ديوان شعر. وتؤكد الاخبار والروايات ان الصحف كانت شائعة، وان تداولها كان معروفاًواسواقها منتشرة. والقائمون عليها كانوا يمثلون طبقة تعرف بالوراقين، وقال ابن سلام ((و كان لأهل البصرة في العربية قُدمَةٌ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية))[2]

ان اعتناء الرواة برواية الشعر وحرصهم على حفظه وتدوينه وتعلمه كان قد عُرِفَ في مطلع القرن الثاني للهجرة في البصرة والكوفة. وقد اهتمت به طبقة خاصة متميزة اتخذت من الشعر موضوعاً تُدَرِسهُ ومادة أساسية لحفظ ديوان العرب واخبارهم، تأخذه عن طريق الرواية والاسناد، وتتابع اصوله في مجالس العلم وحلقات الدرس.

(١) الحيوان١/ ٦٨

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/ ١٢

وكثيراً ما كان حرصهم يدفعهم الى الرحلة الى البادية لمشافهة الاعراب والاخذ عنهم، والاستماع الى من يفد منهم الى الحواضر، توثيقاً لرواية وتعزيزاً لخبر ما. وقد ذكر ثعلب أن أبا عمرو الشيباني دخل البادية ومعه دستيجتان من الحبر فما خرج حتى افناهما بكتب سماعه عن العرب. وقد أكثر الجاحظ من هذه الأحاديث التي نثرها في كتبه وأشار فيها الى سماعه والتقاطه من أفواه أصحاب الاخبار. وكان أبو عمر بن العلاء المتوفى سنة (١٥٤) هـ وحماد الراوية المتوفى سنة (١٥٦) هـ وخلف الأحمر المتوفى في حدود سنة (١٨٠) هـ والمفضل الضبي المتوفى في حدود سنة (١٦٨) هـ من أوائل الرواة الذين مهدوا الطريق أمام حركة احياء الشعر.

اما الطبقة الثانية فهم تلاميذ هذه الطبقة الأولى، وهم الّاصمعي المتوفى في حدود (٢١٦) هـ وأبو عمرو الشيباني المتوفى في حدود سنة (٢١٣) هـ وابن الاعرابي المتوفى سنة (٢٣١) هـ ومحمد بن حبيب المتوفى سنة / ٢٤٥) هـ وابن السكّيت المتوفى في سنة (٢٤٤) هـ. واخذ عن هؤلاء السكري المتوفى سنة (٢٧٥) هـ وثعلب والمبرد والاخفش والطوسي واليزيدي والزجاج والصولي وابن دريد.

وليس مصادفة أن تكون هذه الطبقات الثلاث من العلماء الأجلاّء الذين عرفتهم العربية في تاريخها الحافل من أبناء العراق. وليس غريباً ان تكون هذه الطبقات من البصرة وبغداد والكوفة، لأننا نعرف ان هذه الطبقة من الرواة قد اخذت التراث الشعري وأخبار العرب وانسابها عن المدونات القليلة والروايات الموثقة والقبائل التي حملت تاريخها وايامها ومجدها الحضاري والفكري وفي مقولة ابن سلاّم ((وكان الاصمعي وأبو عبيدة من اهل العلم؛ واعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد

الضبي الكوفي))[1].

وقد أجمع مؤرخو الأدب على تسميتهم باهل العلم لفضلهم وتميزهم وحسن معرفتهم وسلامة أحكامهم وصدق تجربتهم وفضل نقدهم وقد اهلتهم هذه المنزلة إلى أن ينفرد كل واحد منهم بمعرفة فريدة انتهى منها إلى تثبيت رأيه فيما وصل إلى علمه من صحة الرواية ووثوق السند. حتى استقرت في نفسه مجموعة دواوين الشعراء أو مختارات من أشعارهم، فراحوا يقرؤنها على تلامذتهم ويروونها في حلقات دروسهم ويتناولون بعضها بالشرح والتفسير، ويقفون عند غريبها وشارحين بعض الفاظها. وكانت حصيلة هذا الجهد اول كتابين في العربية من كتب الاختيارات هما كتاب المفضليات الذي اختاره المفضل الضبي راس علماء الكوفة في عصره، ولم نعلم ان احداً عمد الى اختيار قصائد أخرى من الشعر فجمعها قبلهم والقصائد الطوال التي جمعها حماد الراوية. وإذا اضفنا الى هذين الكتابين كتاب الاصمعيات للأصمعي والاختيارين للأخفش اتضحت أمامنا حركة الجمع والتوثيق التي شهد العراق اول بداية لها

لقد كان الغيارى من الرواد في هذا البلد يشعرون ببوادر الخطر وهي تتسرب الى اللغة وعلامات العجمة تقتطع أجزاء من تراث الامة. لذلك كانوا يختارون القصائد التي تحمل طابع التربية والتأديب الذي يحمل على الاتصاف بالخلق الرفيع والشجاعة والتحلي بالمثل العربية الاصيلة.

وبقيت بغداد موئل الرحلة للعلماء والرّحالة، يؤمّها القصّاد وينهل من معينها الورّاد، ويأخذ عن علمائها طلبة العلم، فارتفع صوتها على كل صوت، واستمر عطاؤها وهي تنجب الأعلام على مر العصور، واتسعت حركتها العلمية، وساعدها على ذلك انتشار

(١) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٣

المكتبات العامة والمدارس فكانت دار علم الشريف الرضي، ودار العلم بالكرخ. أما المدارس فقد بلغ عددها تسع عشرة مدرسة وقد تميزت هذه المدارس عن الحلقات العلمية التي كان العلماء يعقدونها بانها اكثر تنظيماً واختصاصاً ويبقى تاريخ بغداد للخطيب البغدادي من اضخم التأليف التي كتبت في تواريخ المدن لماحفل به من تراجم، ووقف عليه من أخبار واعتمده من مصادر، فهو يضم (٧٨٣١) ترجمة عدا ماسقط من التراجم في النسخة المطبوعة، منها (٣٢) ترجمة للنساء. وقد كشف فيه عن طرق التدريس ومناهج العلماء ومقاييسهم وعلاقتهم مع تلاميذهم، والتعريف ببعض مدارس المساجد الخاصة بالحديث أو الفقه أو علوم القرآن، وبمجلس كبار العلماء في المساجد أو الدور لإملاء الحديث أو التدريس أو المناظرة أو المذاكرة، ويعبر عن نشاط العلماء ومدى اتصال الحركة الفكرية التي كانت قائمة بين المدن وأّساليب الاتصال الثقافي التي كانت تعطي بغداد عالمية الحركة وشمولية الانتشار، وقدرتها على استقطاب الاعلام.

المصادر

١-أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم / أبو عبد الله بن احمد المقدسي (٣٨١هـ) القاهرة ط ٣/ ١٩٩١

٢- الاعلاق النفيسة / احمد بن عمر أبن رسته طبعة ليدن/ ١٨٩١

٣- أمالي الزجاجي/ أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق البغدادي الزجاجي (٣٣٧) هـ تحقيق عبد السلام هارون / دار الجيل بيروت ط٢ / ١٩٨٧

٤- الحيوان / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ / تحقيق عبد السلام محمد هارون ط٢ / ١٩٦٥

٥- طبقات فحول الشعراء / محمد بن سلام الجمحي (٢٣٢هـ) تحقيق محمود محمد شاكر / دار المدني جدة

٦- المزهر في علوم اللغة وانواعها / جلال الدين السيوطي تحقيق محمد جاد المولى و محمد أبو الفضل و علي محمد البجاوي / المكتبة العصرية - بيروت

٧- المعارف/ ابن قتيبة الدينوري أبو محمد عبد الله بن مسلم / تحقيق د. ثروت عكاشة دار المعارف / مصر ط٤